الفصل الثالث عشر

سر غرفة؟! أم وحي صورة؟!

لا أدرى أحلم هو أم حقيقة، ولكني سأقصه على القراء وأكل الفصل إليهم. وأكبر الظن أنهم أقدر على ذلك منى أنا الذي أعيش بين الأشباح والطيوف، وأغدو وأروح في حاشية منها، وأستوحش إذا افتقدتها فأزورها وأستثيرها من مراقدها وأحف نفسي بها وأنقاد لها وأعاطيها التذكر والحديث حتى ننثني جميعًا «كأنا قد تعاطينا المداما».

ولكل واحد من الناس حياته الخاصة ياسيدى القارئ ... لك مجالس أنسك ولهوك وسمرك وما شئت غير ذلك صاعدًا ونازلا على جانبي المقياس، ولى أشباحي لا أرتاح إلا إليها، ولا أرسل نفسي على سجيتها إلا معها، ولا تخلص أنفاسي إلا بينها، ولا أستعذب سوى حديثها، وإن كان مثله من غيرها حقيقًا بأن يثير الكبرياء ويكوى الغرور من الإزراء.

ولكم قالت لى، وأنا أخبط في الصحراء معها: «أتعرف هذا الوجه الذي يطالعك من الظلام؟». فأنظر إلى حيث تشير فلا تأخذ عيني شيئًا غير الظلمة الدامسة فتقول لى: «لا تحول نظرك عنه تستوضحه». فأغرز عصاي في الرمل وأتكىء عليها وأرسل لحظى إلى حيث تومئ فيرتفع مثل الأستار واحدًا بعد واحد عن وجه لا معنى له ولا حياة فيه فأنكره، وأثنى إليها الرأس سائلا عن صاحبه فتقهقه وتجلجل ضحكتها في الفضاء وتقول: «كيف لا تعرفه؟» فأعجب لإنكارها عجزي عن تذكر وجه كالصورة الميتة ليس فيه ما يحرك الخاطر أو ينماز به من المعارف عن مئات الألوف من أمثاله، فتنطقه لى فلا أزداد به إلا جهالة وله إلا إنكارًا، فتبسم ابتسامة السخر وتقول: «لقد كنا نحسبه أشبه الناس بك! ولكن دعنا من هذا ولنتركه للظلام يحتويه فما هو بأهل لغير ذلك!».

والآن إلى القصة، إذا جاز أن تسمى كذلك! ...

أقمت على ساحل بحر الروم أيامًا، وفى إحدى الليالي أبت إلى غرفتي في ساعة متأخرة وقد أدارت رأسي مناظر الدنيا على ساحله! ومن حقها أن تفعل ذلك بابن الصحراء وساكنها! وكان الليل عاتيا.

كأن شياطين الدجى في إهابه تغنى على زمر الرياح وتغرب

ففتحت النافذة وجلست أصغى إلى صوت البحر الجائش وأستنشى ريحه ... فدخلت على بلا استئذان غادة في حفل من الزينة دخول من هذا مكانه. ونزعت قبعتها وألقتها على منضدة هناك وأقبلت على المرآة تصلح من ثيابها وتمسح شعرها وتلوى خصله الذهبية حول أذنيها وتفرقه على جانبي جبينها وهي تقول، إذ تنظر إلى نفسها بادية في صقال المرآة من قريب ومن بعيد وتصعد طرفها إلى صدرها وثدييها الناهدين الراسخين ونحرها الذي يضيئه عقد من اللؤلؤ، وتصوبه إلى قدميها الصغيرتين وتكشف عن ساقها في جورب بلون الجلد: «من مبلغته أنى هنا الساعة؟! إني أتعقبه حيث يكون من الأرض ولا أدعه يفلت منى — وقد أكون أدنى شئ إليه وهو لا يدري — إلى مباءات الحالمين، وتحت الأشجار التي لا يعشش فيها غير البوم، وإلى سيف البحر حيث اللج يرمى بالزبد ... ولكني، مع الأسف لا أستطيع أن أناديه أو أدعوه أو أسمعه صوتي أو أشعره بوجودي وإن كنت منه كظله!! وقد يناجيني فيروى سمعي بنجواه ويطلعني على ما كنت أجهل وما كان يطويه عنى جهده ويكاتمنيه ما وسعه الكتمان، فأعجز عن جوابه إذ كنت لا أملك غير الإصغاء! فياليت من يبلغه عنى ذلك ليعلم أنى ما زلت على وفائي الذي ألزمنيه والذي لم أندم عليه! ولن تبرح مخيلتي قط تلك الليلة التي طال فيها بيننا الحوار وكاد يفضي إلى شر حال، وكيف نهض عن كرسيه «هذا» وأنا قاعدة على سريري، وحدق في عيني وأومأ إلى بسبابته وقالت: «ستفين لى على رغم أنفك هذا (وغرزت أصبعها في المرآة) أتفهمين؟». فدفنت وجهي بين كفى وانطلقت أبكى فما عبأ بي شيئًا! فياما كان أقساه في تلك الليلة! ولما طال الأمر ولم تجف عبراتي صاح بي بصوت قوى: «خير لك أن تنتهي عن هذه الحماقة التي لن تغنى عنك شيئًا، ولقد صارحتك بعزمي ولو نقل هذا البحر بالغرابل ما تحولت عنه. وقد آليت أن أقتلع من بين جنبيك هذه الوساوس والحماقات بجذورها كما تقتلع النباتات الطفيلية، ولو انتزعت معها أصول أحشائك! وسترين أنى فاعل — بسوطي هذا وذراعي هذه، إذا احتاج الأمر إلى هذين!». وقد فعل ... ولكني ذويت. حتى صرت إلى ما أرى!».

وتراجعت عن المرآة ووجهها إليها، ثم أقبلت عليها ودارت أمامها ثم مضت إلى السرير فارتمت عليه برهة حدثتني النفس في خلالها أن ألوذ بالفرار! والحق أقول إني خفت جدّا! ولكني جمدت مكاني ولم أستطع حراكا حتى لكأني استحلت بعض ما في الغرفة من أثاث!

ثم اعتدلت كالمفيق من غشية وجعلت تجيل عينيها في الغرفة وتنفض كل ما فيها. غير أنها كانت نظرة من لا يكاد يرى. وعادت إلى الكلام بصوت مخنوق هاف أيقنت منه أنى في أمان!

«نعم كانت ليلة داجية كهذه. عاصفة الرياح مثلها وكنا ضجيعين على هذا الفراش. غير أنى كنت لا أنفك أفلت من عناقه وأشيح بوجهي عنه كلما أهوى إلى بفمه وأمنحه جانب محياي دون صفحته. وأتقى أن تلتقي عيوننا أو أتلقى أنفاسه الحارة بغير خدي. وأعيته الملاطفة وحز في نفسه فتورى فاعتمد على كوعه وهو مستلق إلى جانبي، وألح على يستخبرنى عما بي وعن علة ما كان باديًا عليَّ من الزهادة والسآمة، ويسألني ما لجفونى قد جفاها الغمض ويقول: «ماذا يجول في هذا الرأس الصغير؟ أي هم يقض مضجعك؟»».

فأقول مرائية: «كيف يستضيفني الهم وأنا إلى جانبك؟»».

فيقول: «أتراني أخلفت لك وعدًا أو أسأت بكلمة أو إشارة؟ لقد نحيت عنك ذراعي في جفوة لا يتوقعها الزوج بعد أسابيع من زفافه؟ أتراك نادمة على زواجنا؟ أم فاتك من هو خير منى وأحب؟ أم خاب لك أمل؟ أم ماذا؟ قولي بالله؟ صارحينى! لا تخشى شيئًا! دعي هاتين الشفتين الدقيقتين المطبقتين تنفرجان!»».

فأطبقت جفوني حتى لا أراه. ووضعت ذراعي على جبيني لأكثف الستر بيني وبينه، ولبثت هكذا لا أنبس بحرف كالذي يريد أن يستغرقه حلمه — نعم كنت أحلم ولكن بغيره — واأسفاه! بذاك الذي أقسمت له وأنا بين ذراعيه، وفمه على شفتي يوسعهما لثما ألاّ أساكن سواه أو أبادل غيره القبلات حتى الممات. والذي لا أحتضن إلاه حين أطوق هذا الزوج! ... فهممت أن أقول له:

> «اسمع يا صاحبى! إنك زوجي ... لا أنكر ذلك، ولو أنكرته لما أجدانى الإنكار شيئًا، ولكنه كان لى صاحب — أو حبيب إذا شئت وأبيت إلا أن تسمى الأشياء أسماءها كيفما كانت — وهو ممن خلقوا ليعشقوا، ولا تكاد تراه حتى تتعلق وتهواه ... ولكنه فقير لا يملك أن يبلغني من الدنيا مناي، وليس يخفى

عليه أنى مخلوقة لنعيم الغنى لا لخشونة الفقر وذلة الفاقة ومراقعها، وأن صبري على الإقتار عسى أن يكون عسيرًا ... فجعلت من أجله أدافع الخطاب عن نفسي وأتجنى وأبدى الزهادة في حياة الزواج، وأرفض الرجال وأنت في جملتهم! حتى انتهرنى أهلي واستحمقونى وأشبعونى لومًا وتقريعًا فقبلتك بعلا ... أتظن أنك لا تعرف صاحبي هذا؟! بلى تعرفه! ومن تراك تعرف إذا جهلته؟! ولقد عاد منذ قليل بملء جيوبه ذهبًا وهو يحسب أن قد ساعفته الأيام على بلوغ أربه ولا يدري أنه آب بعد الأوان! ... وأن من حقه أن أكون له دونك ... وقد كتب إلى يتقاضانى الوفاء الذي أقسمت له عليه فألهب كتابه النار التي كنت إخالها قد خبت ... وماذا عليك لو تركتني له؟ ألقنى له ولو كالعظمة إن شئت! وأنت امرؤ لا يرى الدنيا إلا سوقا تفسدها العواطف. وقد شاء ربك أن يرد قلبي إليه ويحفظه عليه، ولست بقادر، مهما تصنع، أن تعترض قضاء الله أو تحول دون مشيئته ... ولخير لك أن ترمى إلى بزمامي، ولأن تدعني جاهلا ما كان من أمرنا أفضل من أن تبقيني فتعلم ما نطويه عنك ... نعم فقد رأينا أن الزواج لا سبيل إليه بعد أن بنيت أنت بي، فتوافينا إلى بقعة مهجورة على ساحل اليم وتعاهدنا أن نكون زوجين، وأشهدنا على زيجتنا هذه نجوم السماء والبحر والريح، وإنه لعقد لا يعترف به الناس غير أنه مع ذلك صحيح فيما بيننا، ولأن يكون هو زوجي وعقيدي أولى من أن تكونهما أنت!! ولا نكران أن الأمر كان موكولا إلى اختياري وأنى آثرتك عليه أمام الناس، ولكن هذا كان لا مندوحة عنه ولا بد منه. وهل كنت تتوقع منى غير هذا في سبيل التحفظ بشرفي؟! نعم شرفى! ولست بأول أنثى اتخذت من الزواج ستارًا لحنينها! ولا يخفى على أنى من أجل هذا أستحق اللعنة ولكني كنت مضطرة إليه اضطرارًا. فأنت ترى أن كل شئ يدعوك إلى تركي وإطلاقي إليه ...».

هممت بأن أكاشفه بهذا، ولكن شيئًا عقد لساني وألجم فمي، فمنحته ظهري واستقبلت الحائط ... وكأنما مل طول صمتي وآلمه انصرافي عنه واستدبارى إياه كلما حاول أن يتألفنى من نفرتى، فجذبني إليه بعنف أو لعله لم يعنف ولكن ما كانت تجيش له نفسي جسم لى الأمر، فهاج هائجي واضطرم صدرى وثرت به أرجمه بكلام

لا أملك حبس لساني عنه وأقوله له فيما أقول: «إني أبغضك ... أمقتك من أخمص قدمي إلى فرع رأسي»!

قال: «ماذا تقولين؟!». واعتدل فوق الفراش.

قلت: «لقد قلتها! ألم تسمع؟ لقد كان غيرك أولى بي لو أنصفت المقادير!!»

فوثب عن السرير إلى قدميه كالنمر الهائج وجذبني إليه من شعرى وصاح بي بصوت وحشي أشاع الرعب في كياني: «من غيرى هذا؟! أفصحي أيتها اللعينة!».

فلم أستطع جوابا وعقد الخوف والألم لساني وأنا جاثية عند قدميه وخصل شعرى ملفوفة على يمينه، وشماله على جبيني يرفع بها وجهي إلى عينيه ... ومضت برهة كأنها الدهر ونحن كذلك، ثم شد شعرى وقال: «انهضى». ودفعني إلى السرير «اسمعى! لن أقتلك فأنت أهون من ذلك وعندي ما هو شر من القتل. فاعلمي أنى لست كغيرى من الرجال! إنك زوجتي «أنا» — وعض هذه الكلمة — وستظلين زوجتي «أنا» رضيت أم سخطت! ولست أعبأ شيئًا بالناس وما عسى أن يقولوا، ويمينًا ليس عندي لك سوى السوط أمزق به جلدك وأطير به من رأسك الفارغ كل ما يمكن أن يعشش فيه من الأباطيل، ولأطعمنك إياه كلما أجاعك إليه الأهواء السخيفة».

فبكيت وسرت في بدني كرعدة الحمى وتصاكت أسناني، فصاح بي أن «ازجرى عينك عن البكاء فلست ممن تلينهم الدموع أو تخدعهم! ويظهر أنك تغفلتنى أو كنت تحدثين نفسك بتغفلى. وسألقى عليك درسا يؤدبك غير هذا الأدب».

فلم أجبه، وظهرت على وجهي وهيئتي أمارات الاستخذاء والضراعة ولم يتركني حتى أقسمت له أن أصدقه الولاء وأمحصه الوفاء.

ثم نهضت إلى المرآة مرة أخرى وهي تقول: «وقد أخلصت. وحمد لى إخلاصي وتبنى غلام صاحبي ولكني صرت إلى ما أرى! ... وقد أسمعه أحيانًا يهتف بي مناجيًا: «أيتها المرأة التي أفتقدها! من لى بأن أراك كما كنت تبدين لى! لشد ما أتعثر الآن في سيرى بعدك! وما أكثر ما يتساقط حولي من أوراق الحياة وأزاهيرها!». ولكني لا أستطيع أن أجيبه حين يهيب بي وإن كنت أتبع له من ظله».

وتقشعت السحب عن القمر، فنفذ إلى الغرفة نوره فرفعت طرفي إليه ثم ثنيته إليها فإذا بالفتاة قد غابت! ... ذهبت كما جاءت بلا استئذان ولا احتفال ... فخطر لى أن أعالج الباب لأنظر أمفتوح هو أم مغلق وأن أرى ماذا في الدولاب وتحت السرير! ولكني

استحييت من نفسى! وأشعلت سيجارة وجعلت أدخنها رائحًا غاديًا في الغرفة حتى إذا قاربت الانتهاء منها ألفيتني واقفًا أتأمل صورة حسناء!! فابتسمت وقلت: «أهذا أنت يافتاتى؟! كيف خرجت من إطارك هذا بالله عليك؟ لشد ما أزعجتني يا سيدتى! فما جزاء من يعابث ضيوفه على هذا النحو؟! أن أواريك عن عيني؟! نعم!».

وقلبت الصورة وأدرت وجهها إلى الحائط وقلت وأنا أتمطى على الفراش: الآن أستطيع أن أنام في أمان من خيالاتك أيتها الحسناء الماكرة!